قراءة في ومضة "أشواق" لكاظم عكر

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأتناول في هذه المقالة ومضة "أشواق" للكاتب اللبناني كاظم عكر. يقول نصُّ هذه الومضة القصصية:

قَرَأَتْ اسمه على كل نجمة في السماء، فأبرقت سماؤهم وأرعدت، وهطل المطر..

تقيم الومضة هنا تباينا بين ضمير الغائب المفرد وضمير المتكلم المفرد من جهة، وضمير الغائب الجمع من جهة أخرى. وهذا التباين يدل على اختلاف في الرؤى بين الجهتين، أو أن الأشخاص الذين يندرجون تحت ضمير الغائب الجمع لا يؤمنون أو لا يعترفون بالشخص أو الكائن الذي يشير إليه الراوي بضمير الغائب المفرد. ولكن عدم الإيمان أو عدم الاعتراف من جانبهم لا يمنع الراوي من أن

يستعمل اسم ذلك الشخص أو الكائن كوسيلة تساعدهم في المحافظة على حياتهم أو مواصلتها من خلال المطر.

تبدأ الومضة بفعل القراءة الأقرب إلى التلاوة أو الترنُّم أو التعويذة. وترتبط القراءة هنا بالنجوم، ولكن الراوي لا ينظر إلى النجوم على أنها كتلة واحدة أو كيان واحد، فيذكر "كل نجمة"، وكون النجمة مؤنثة، يوحي بأن الشخص الذي لا يتم ذكر اسمه هو مؤنث أيضا، وفي الغالب هو الحبيب أو المحبوب. ومما يسعدني على القول بذلك مظاهر الغضب التي تتجلى في السماء بعد سماع كل نجمة لاسم محبوبة الراوي، فيبدو أن كل نجمة من هذه النجوم شعرت بالغيرة منها، وعبرت عن هذه الغيرة من خلال الإبراق والرعد. وتجمّع كل إبراق وكل رعد قامت به كل نجمة ليملأ سماء أولئك الذين لا يعترفون بالمحبوبة بالغيوم التي سرعان ما تهطل مطرا.

وهنا نعود لنتأمل الأثر الإجمالي للومضة ككل: بالرغم من أن هذه الجماعة أو أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه الراوي

لا يعترفون بالمحبوبة ولا يعترفون بعلاقة الراوي بها، كان مجرد ذكر اسمها وسيلة لتدفق النماء والماء في حياتهم. وهو أثر غير مقصود في البداية. لكن لغة السماء كانت بها علامات أخرى، وكأنها أرادت أن تقول إن علاقة الراوي بمحبوبته فيها خير للمجتمع ككل، فإذا نما الحب في قلب أي فرد من أفراد المجتمع سينعكس ذلك الحب على حياة باقي أفراد المجتمع.

الأمر الثاني قد يكون نقيضا للأمر السابق، فالراوي يعزل نفسه عن باقي أفراد المجتمع من خلال جمعهم في ضمير الغائب الجمع وحصر نفسه في ضمير المتكلم المفرد المضمر في الفعل "قرأتُ"، الأمر الذي قد يوحي بأن علاقته بمحبوبته تجعله في حالة اكتفاء تغنيه عن حاجته لأفراد المجتمع.

وهناك أمر ثالث يتعلق باستعمال الأفعال في هذه الومضة: فهناك فعل واحد يختص به الراوي بوصفه فاعلا له، وفي مقابل هذا الفعل توجد ثلاثة أفعال ترتبط بالسماء

والمطر: أبرقت، أرعدت، هطل. وعدم التوازن العددي بين الأفعال هنا قد يدل على توازن كيفي بينها، خاصة عندما نتأمل الفعل الوحيد الذي يرتبط بالراوي: قرأتُ. وكان أمام هذا الراوي بدائل عديدة قد يختار من بينها مثل تلوت، ترنمتُ، همستُ، ذكرتُ، رسمتُ، الخ. ولكن اختياره للفعل "قرأتُ" على وجه الخصوص يدل على أن "القراءة" مقصودة، وكأن البنية الإجمالية للنص ككل تقول لنا بأن القراءة فيها رعد وبرق ومطر وبالتالي نماء وصلاح وحياة للمجتمع ككل حتى لو كان أفراد هذا المجتمع يقاومون القراءة ولا يعترفون بها أو على الأقل لا يقدرون عليها.

المدى الزمني في هذه الومضة قصير بالطبع، وأرى أنه زمن لا يستغرق لحظات، فمضمون الومضة قد يعطينا أحيانا فكرة أو تصوُّرًا عن مداها الزمني. وأظن أن القراءة هنا تتخذ سمات التعويذة أو التميمة، وكأن قراءة الاسم لها مفعول "كن فيكون"، فإذا كان هذا الاسم قادرا على إحداث

الرعد والبرق وبالتالي إسقاط المطر، فلابد أنه اسم له كيمياء خاصة.

كما أن الحدث هنا أقرب للشاعرية، وفي منطق القصيدة توجد مرونة أكبر من المرونة في السرد القصصي المعتاد. فإذا نظرنا إلى ظاهر الومضة، سنجد أنها تميل إلى السريالية والعبثية. ولكن في ثقافتنا الشرقية، تدل القراءة أيضا على قراءة الآيات القرآنية: قرأ على الماء ثم دعا المريض لشربه. وتدل أيضا على التعاويذ السحرية التي تتم قراءتها لجلب منفعة لأحد أو إحداث ضرر بأحد، وفيها يفقد المنطق المتعارف عليه دوره ويحل محله منطق آخر يتعلق بالأثر الذي تهدف التعويذة إلى تحقيقه.

الشخصيات الرئيسية هنا في الظاهر: "أنا/هم"، ولكن الشخصية الأساسية الفاعلة حقا هي شخصية الاسم فبدونه سيتلاشى الحدث من الومضة. كما أن الطبيعة الشعرية للنص هي التي تلعب دورا كبيرا في جعل هذا الاسم هو الشخصية المحورية في الومضة.

ويمكننا أن نعيد النظر في الشخصيات، فننظر إليهم على أنهم ينقسمون إلى فئتين: أنا والاسم والبرق والرعد والمطر من ناحية لأنهم ينتمون إلى نفس المجال ويساهمون جميعا في تحقيق الفاعلية وإثبات عطاء الذات ومحبوبها، والفئة الثانية تشمل الـ "هُم" الذين يناوئون هذه الأنا بسبب ارتباطها بالاسم وصاحبته أو صاحبه ومع ذلك يشملهم العطاءُ.

باختصار، موضوع الومضة القصصية بوجه عام قد يلعب دورا كبيرا في تغيير نظرتنا للمدى الزمني الوارد فيها، فشخصية مثل "الاسم" هنا أو طبيعة التجربة مثل الطبيعة الشعرية هنا قد يجعلانا ننظر للزمن في النص بناء عليهما.

طبعا الومضة مروية بضمير المتكلم نظرا لاشتراك الراوي في الحدث، والمنظور السردي المستعمل هنا منظور خارجي بوجه عام، فيمكن لأي شخص كان واقفا بالقرب من

الراوي أثناء الحدث أن يراه وهو يقرأ ذلك الاسم، ويرى البرق والرعد وهطول المطر.